الجمعية العلمية

﴿ في الآستانة ﴾

كان تأليف الجمعيات ممنوعا من البلاد العثمانية في العصر الحميدي المظلم بل كان لفظها ممنوعا أيضا حتى كاد يمنع الاجتماع للعبادة بغير مراقبة كما منع لغيرها ألبتة، وقد بينا ذلك في المجلد الثاني عشر. ولهذا اندفع العثمانيون بعد الانقلاب الى تأليف الجمعيات كما هو شأن الناس في الممنوع اذا أبيح بعد التشديد في منعه فألفوا جمعيات كثيرة بأسماء مختلفة لمقاصد مختلفة، ولبعض تلك المقاصد أصل ثابت، وبعضها نشأ عن وهم عارض، ولما زرت سورية بعد الانقلاب رأيت في كل من بيروت وطرابلس ودمشق جمعية تسمى « الجمعية العلمية » ألفها افراد من صنف العلماء المسلمين ولم يكن فيها صلة وربما كان بعضها تقليدا وقد سمعت يومئذ عن جمعية دمشق ان الغرض منها حفظ جاه مؤسسيها ومقاومة رجال الدستور ولذلك لم يدخلوا فيها خيار العلماء الاحرار العاملين، ومهما قيل فيها وفي غيرها وسواء صح أو لم يصح فلا يمكن أن يدعي أحد انها عملت شيئا لخدمة العلم أو الدين

ولما زرت الآستانة في العام الماضي سمعت أخبارا متعارضة عن الجمعية العلمية التي أسست فيها وكنت قد سمعت قبل ذلك انها جمعية جهود تعارض كل إصلاح ديني أو غير ديني اذا لم يقم عندها دليل من فقه الحنفية عليه، وان مجلتها (بيان الحق) أنشئت لهذا الغرض فهي ترد على المجلة التركية الاصلاحية (الصراط المستقيم) التي يكتب فيها محبو الاصلاح كوصى كاظم افندي (شيخ الاسلام الآن) واسماعيل حقي افندي المناسترلي واضرابهما من شيوخ الآستانة وشبانها المحبين للاصلاح، وبلغني أيضا أنها ردت على المنار في مسألة الاستقلال والتقليد. بل كان شاع ان علماء الآستانة هم الذين أوقدوا نار فتنة ٣١ مارت (أو ١٣ ابريل) المشهورة وان الحكومة الدستورية قتلت كثيرين منهم

لهذه الاخبار والاشاعات كانت صورة الجمعية العلمية في ذهني غير جميلة عند ما جئت الآستانة واتفق ان سمعت من بعض اكابر رجال السياسة هناك شكوى من جمود العلماء وتعصبهم حتى قال لي من لا اسمي منهم ان مشروعك الذي جئت لتأسيسه هنا لا يخشى عليه الا من العلماء فانهم هم العقبة في طريق الاصلاح ولهم نفوذ عظيم لاتباع العامة لهم . ثم انني علمت بعد طول الاختبار ان كثيرا مما كنت أسمعه عنهم باطل و بعضه مبالغ فيه وانهم لم يكن لهم يد ولا أصبع في الفتنة بل كان لهم الاثر الصالح في إطفاء نارها وحمل الناس من العسكر وغيرهم على طاعة الحكومة الدستورية ولكن بعض رجال الفتنة قد لبسوا لها لباس العلماء حتى قيل انهم اشتروا نسيج العمائم الأبيض من خارج الآستانة

لما عرضت مشروعي على الصدر الأعظم أول مرة عقد له بالاتفاق مع عميد جمعية الاتحاد والترقي لجنة علمية مؤلفة من أمين الفتوى أسعد افندي ومستشار المشيخة مصطفى افندي أوده مشلي واسماعيل حقي أفندي المناستر لي وموسى كاظم افندي من الاعيان وكلهم من كبار شيوخ العاصمة فلما اتفقوا على استحسان المشروع كما ذكرت ذلك في وقته في رسائلي من الآستانة حمدت الله على وجود أمثالهم واعتقدت انه لابد ان يوجد كثير من العلماء على رأيهم ومشربهم ولا سيما من الشبان والكهول وصرت أمدح علماء الآستانة فيقول لي بعض أهلها لا تقس على هؤلاء فالاكثرون متعصبون غلاة في مقاومة كل إصلاح والجمعية العلمية هي بؤرة التعصب

ثم اسعدني التوفيق بلقاء بعض رجال العلمية في مجلس المبعوثين وغيره فرأيت فيهم من آيات الغيرة والاخلاص والميل الى الاصلاح ما حمدت الله عليه واعتقدت أنه لاخوف على مشروعي منهم بل رجوت أن يكونوا من خير المساعدين عليه اذا هو تم بمساعدة جمعية الاتحاد والترقي وان يقوموا هم به اذا لم تساعدني تلك الجمعية من جهة الحكومة ولكنني لم أطالبهم بذلك لانني لم أكن اسمع من الحكومة الا الوعود الجميلة حتى تم المشروع على الوجه الذي يشاء

ولما عزمت على السفر من الآستانة الى مصر كتبت في جريدة الحضارة ذلك الخطاب الى علماء الاسلام في الآستانة وسائر البلاد الاسلامية (وهو مستراد قريبا في هذا الجزء)

وأحببت ان أجعل تمهيدا لزيارة الجمعية العلمية في ناديها ابداء شيء من التفصيل في الاصلاح الاسلامي لجمهور رجالها ، فرأيت للمخاطب من التأثير فيهم فوق ما كنت احسب حتى كنت القى الواحد منهم في الطريق أو في بعض الدور أو المعاهد العامة كالمساجد والمدارس فأجده حافظا لبعض جملها يتلوها عليّ معجبا مثنيا وقال لي بعضهم ان رجال الجمعية العلمية قد أعجبوا بهذه المقالة واقترح بعضهم ترجمتها بالتركية ونشر الترجمة في مجلة الجمعية (بيان الحق) فعلمت ان ما كنت اسمعه من أبناء الدنيا في علماء الآستانة من التعصب والجمود ناشيء عن سوء فهم أو سوء قصد كما يقال ورغبت في زيارة الجمعية في ناديها وذكرت ذلك لبعض أعضائها فأخبرني انه قد تقرر أن لا يجتمعوا فيما بقي من ليالي رمضان القليلة (قال) فلا بد ان نرسل الى من يوجد منهم في الآستانة دعوة خاصة ولا شك انهم يسرون بذلك وموعدنا ليلة الاثنين ٢٩ رمضان . ولما جئت النادي ليقينهم أني حافلا بجمهور عظيم منهم فحص به النادي وبعد التحية واستراحة قليلة ألقيت عليهم خطابا ارتجاليا طويلا لا تقل مدته عن ساعتين فتلقوه بالقبول والارتياح التام وسألتهم هل انتقدوا منه شيئا فلم أجد عندهم انتقادا بل إجماعا على جميع مسائله وثناء

لا أتذكر جميع ما قلته في ذلك الخطاب من المسائل والدلائل ولكن لم أنس مقاصد الكلام وأقطابه وهي ثلاثة (١) وجوب تعارف العلماء وتعاونهم على خدمة الأمة والدولة فان هذا العصر عصر الجمعيات لا يستطيع أحد ان يعمل عملا لامته الا ويتوقف نجاحه التام على قوة جمعية تظاهره وتعاونه عليه (٢) تساهل العلماء في خلاف المذاهب في الاصول والفروع والاكتفاء في عقد الاخوة الاسلامية بين جميع المسلمين بالمسائل المجمع عليها (٣) إحياء هداية الكتاب والسنة في المسلمين وبث دعوتهما والذب عنهما

فما قلته في المقصد الاول ان علماء الاسلام في عهد نهضتهم العلمية الاولى في بلاد العراق والفرس والشام ومصر وافريقية والاندلس كانوا يتعارفون بالسياحة وبنقل الكتب من قطر الى قطر حتى كان المعاصرون في الشرق والغرب ينقل بعضهم عن بعض كما ترى في كلام ابن خلدون عن كتب سعد الدين التفتازاني وابن هشام . ثم ذكرت ما بين علماء المسلمين من التقاطع بين المسلمين في هذه العصور الاخيرة على سهولة المواصلات وكثرة المطابع . وبينت ان علماء الآستانة من أجدر العلماء

بخدمة الاسلام والتعارف بين سائر علماء الاقطار ولكنهم على كثرتهم وجدهم واجتهادهم في العلوم الاسلامية لا يكاد يسمع لهم صوت في قطر من الاقطار كمصر والغرب والهند وقد كان لذلك سببان (احدهما) سياسي وهو ظلم السلطان عبد الحميد ومنعه لمثل ذلك وقد زال (وثانيهما) عدم التكلم والكتابة باللغة العربية وكان من غلطهم قراءة كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية بالترجمة ولا سيما التفسير والحديث والاصول فان هذا يضيع عليهم زمانا طويلا في التحصيل ولو كانوا يتقنون اللغة العربية نفسها قراءة وتكلما وكتابة ثم يدرسون فنونها وعلومها لكان يكون تحصيلهم اسرع وا كمل وتعبهم فيه أقل ، ولكان لهم آثار كثيرة يعرفهم بها علماء الاقطار الاسلامية كلها وهذا السبب يسهل عليهم تداركه في زمن قليل وينبغي ان يكون في مجلتهم (بيان الحق) قسم عربي تكون وسيلة لاتصالهم بسائر علماء المسلمين الذين يعرفون هذه اللغة مهما كان جنسهم ولغتهم

وبينت في المقصد الثاني ما دل عليه العلم بأخلاق البشر وطباعهم وما أفادته التجارب من اقتضاء رد الفرق بعضهم على بعض ثبات كل على رأيه ومذهبه وحرصه عليه وإغرائه بعداوة المخالف والنظر الى كلامه بعين السخط لا بعين الروية والانصاف ، ومن اقتضاء التساهل التعاضد والمواثقة والنظر الى الاشياء بقصد استبانة الحقيقة وعاقبة ذلك ظهور الحق على الباطل ، واستشهدت على هذا ما كانت عليه الأمم الأوربية من التنازع والتعادي في الدين والسياسة لاختلاف المذاهب والمطامع وما آل اليه أمرها من عقد الدول المحالفات والموالاة السياسية بعضها مع بعض ، ومن حذو الجمعيات الدينية حذو الدول في الاتفاق على المخالفين ووضع الحدود للدعوة الدينية كحدود النفوذ السياسي ، وكان بين فرقهم الثلاث ـ الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ـ نزاع شديد ومعارضات قوية بعد تلك الحروب المعروفة ، فضعف ذلك واتفقت جمعياتهم كما اتفقت دولهم على اقتسام البلاد الاسلامية والوثنية كاقتسام روسية وانكلترة لبلاد الفرس فعلينا أن نعتبر بأحوال الأمم ، ونجتهد في إدالة الوفاق من الخلاف والحب والائتلاف من العداوة والبغضاء ، والخلاف بين الفرق الاسلامية الكبرى ـ السنية ، والشيعة الامامية والزيدية ، والاباضية ، أهون من الخلاف بين المذاهب النصرانية التي يحكم كل فريق منها بكفر الفريق الآخر

وذكرت أيضا ما اتفق عليه أئمة أهل السنة من عدم تكفير أحد من أهل القبلة ومن افتاء الفقهاء بترجيح القول الضعيف بعدم التكفير على مئة قول قوي بالتكفير ، ومقابلة ذلك بما عليه الجامدون من أدعياء العلم المتأخرين اذ يكفرون من يخالفهم حتى في الفروع الظنية بل في الامور العادية التي ليست من الدين في شيء ، وبذلك شقوا شمل الاسلام ومزقوا نسيجه . وذكرت لهم جمعية ندوة العلماء في الهند وان من مقاصدها التأليف بين أهل المذاهب الاسلامية والدعوة الى الاسلام والحكومة الانكليزية مساعدة لهم على ذلك ، وما ذكره لي بعض علماء الشيعة من ميل علماء النجف وايران الى الوفاق وترك بعضهم تدريس الكتب التي تشتمل على الرد على أهل السنة ، وما أعلمه من ميل علماء الاباضية الى مثل ذلك ، وان حوادث الزمان وعبره قد اعدت المسلمين للاتفاق والاتحاد الديني فعلى العلماء أن يغتنموا هذه الفرصة في كل البلاد ولا سيما في الآستانة فاذا قصروا فاتتهم الفرصة وخرج الامر من أيديهم . . . . واشرت الى ما قاله الغزالي في القسطاس المستقيم من كفاية المتفق عليه في الدين للهداية وقلة من يعمل به فان المذاهب كلها متفقة على توحيد الله وتنزيهه وسائر أصول الايمان وعلى تحريم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وعلى أركان العبادات وأصول جميع الخيرات ، فأين من يعمل بما اتفقوا عليه ؟

وذكرت في بيان المقصد الثالث ان الدعوة الى الاصلاح الاسلامي وترقية المسلمين في دينهم ودنياهم لا يمكن ان تكون الا بهداية الكتاب والسنة لما لهما من التأثير في النفوس باسنادهما الى الله عز وجل ورسوله (ص) ولما فيهما من الحكم والعبر التي لا توجد في كتب الكلام والفقه ولأنها الأساس المتفق عليه عند كل المذاهب . وقلت قد علمت ان بعض الناس هنا كانوا يظنون ان « المنار » قد سلك هذه الطريقة لأجل أن يدون مذهبا جديدا ويحمل الناس على ترك مذاهبهم اليه وقد صرحت بنفي هذه الشبهة غير مرة فأنا لا أريد ان احدث مذهبا جديدا ولا أجيز لنفسي ذلك وإنما سلكتها لاسباب (١) ان المنار عام لجميع المسلمين لا لأهل مذهب واحد منهم فوجب أن يكون هديه بما هو الأصل المتفق عليه بينهم (٢) للكتاب والسنة من التأثير في النفس والسلطان على القلب مالبس لكلام أحد كما تقدم آنفا

فالدعوة الى الاصلاح بهما اسرع قبولا ، وأقرب حصولا (٣) انهما مشتملان على كل ما نحتاج اليه لاجل الهداية والنهضة الاجتماعية التي هي أصل كل ارتقاء (٤) ان ما يذكر في المنار من الأحكام الشرعية يقصد به إما بيان حكمة الشارع فيه وكونه موافقا لمصلحة الناس في كل زمان ومكان وإما الدفاع عن الاسلام ورد شبهات المعترضين عليه من الافرنج وغيرهم وهم لا يحتجون بالرد على أقوال الفقهاء وآرائهم الاجتهادية وانما يعتبرون سهامهم الى أصل الدين وهو الكتاب والسنة وحسبنا ان ندافع عن أصل ديننا وبين حقيته وحكم أحكامه وموافقتها للعقل والفطرة ومصالح البشر . واني قد نشأت على مذهب الشافعي في الفروع والاشعري في العقائد (ح) ولست استطيع إقناع الناس بما ذكرت اذا انا التزمت هذين المذهبين اللذين قرأت كتبهما وحاولت ان ارد الشبه عن العقائد وأبين حكمة الشريعة منهما أو بهما ، وكذلك يقال في سائر المذاهب

(قلت) مثال ذلك ما جرى لاحد إخواننا الذين على طريقتنا في مصر : كان مدرسا في مدرسة الحقوق للشريعة على مذهب الحنفية وكان بعض الطلبة من المسلمين وغيرهم يوردون الشبه على بعض المسائل الفقهية ويرون ان حكم القانون أقرب الى العدل واضمن للمصلحة من الحكم الشرعي فكان ذلك المدرس يراجع قبل الدرس ما يتعلق بمسائله من الآيات والاحاديث ان كانت ومن أقوال سائر أئمة الفقه فاذا أورد طالب شبهة على حكم وظهر له جواب مقنع اجاب به والا قال للطالب ان ما ذكرته لا يرد على أصل الشريعة وانما يرد على رأي الامام ابي حنيفة أو الامام ابي يوسف (مثلا) في هذه المسألة وهو رأي اجتهادي ظني عنده وقد خالفه فيه الامام مالك أو الشافعي (مثلا) واحتج بحديث كذا (مثلا) فان كان هنالك آية أو حديث صحيح التزم الدفاع عنه والا ذكر من أقوال الائمة الاجتهادية ما يراه أقرب الى إقناع السائل وامثاله بعدل الشريعة

هذا أهم ما ذكرته وأحببت نشره ، وبعد ان عدت الى مصر جاء في العدد ٨٠ من مجلة (بيان الحق) فرأيت فيها كلاما عن هذا الخطاب فيه اشارة الى غير ما تقدم من المسائل وهذه ترجمته بالعربية :

﴿ حول خطبة رشيد رضا افندي ﴾

خطب رشيد افندي رضا احد علماء طرابلس الشام وصاحب مجلة (المنار) التي تصدر في مصر خطبة شائقة في مركز الجمعية العلمية الاسلامية ليلة ٢٩ رمضان بحضور جم غفير من العلماء . ألقى هذه الخطبة التي نحن بصددها باللغة العربية وقد فصل القول فيها تفصيلا استمر ساعتين من الزمن

ابان في مرقفه هذا مارمى اليه في مقالته التي وجهها الى جميع علماء المسلمين المنشورة في جريدة الحضارة بعددها ٢٤ الصادر في ٨ ايلول سنة ١٣٢٦ (مالية) واثبت بالادلة والبراهين القاطعة ان جمود علماء الاسلام الآن باعث على تأخر الامة الاسلامية وعدم سعادتها وبعد ان اقنع جميع الحاضرين بأنه اذا نقل العلماء على ماهم عليه ولم يحافظوا على علو مركزهم تظهر فيهم اذ ذاك اعراض الافتراض والملاشاة ، ثم ذكر ماتصادفه الجمعية العلمية من الموانع والمشاكل اذا بقيت منحصرة في بلدان محدودة . وانه يجب ان يؤسس لها فروع في جميع اطراف المملكة العثمانية ثم تؤسس لها ايضا فروع وبلدان عمومية في كافة اقطار الارض المعمورة بالامم الاسلامية . وبين فائدة ارتباط شعب هذه الجمعية بعضها ببعض وما ينجم عنها من الفوائد العظيمة اذا سارت هذه البلدان بطريقة جدية في الاتصال بمركز الجمعية العمومي في الامور الدينية المهمة والمباحثات المعضلة الدقيقة فهي تساعد على خدمة الاسلام خدمة حقيقية وتوسع دائرة نظامه في العالم المعمور

ثم ذكر ما كان بين علماء الاسلام في المشرق والمغرب من الارتباط في زمن سعد الدين التفتازاني يوم كانت وسائط النقل والسفر صعبة شاقة فقد كان حينئذ علماء الاسلام يتبادلون المكاتبات والمباحثات في دقائق الامور وان آثارهم الموجودة الان لأعظم شاهد على إلمام كل فريق منهم بمؤلفات الفريق الآخر

وأما اليوم فانه من المعلوم عند الجميع ان وسائط النقل تقدمت تقدما عظيما ولكن من المحزن ان علماء المسلمين لم يوجد بينهم أقل اتفاق ولا تعارف وقال انه مع الفخر في هذه الخدمة الجليلة يسعى بتأسيس وتشكيل جمعية علمية إسلامية في مصر وسائر البلاد العربية

ثم تكلم عن شكل الجريدة التي ستكون ناشرة لافكار الجمعية العلمية فقال : ان من المتعسر نشر هذه الجريدة بلغات مختلفة ولكن من الامور المقررة ان علماء الاسلام مهما اختلفت لغاتهم والى أي عنصر نسبوا وبأي لسان تكلموا فلا بد ان يكونوا متضلعين في اللغة العربية ولذلك استصوب ان تنشر الجريدة باللسان العربي وتعم بين علماء الصين والهند وجاوا والترك والافغان والعجم وجميع البلاد الاسلامية وبهذه الطريقة المثلى يحصل التعارف بين كافة علماء هذه البلاد وتدور المباحثات في المسائل المهمة وعندها تظهر هذه الجريدة حافلة بالمقالات العظيمة التي تكون سببا لخدمة الدين والامة الاسلامية بما يورد فيها من الاسئلة والاجوبة التي تمحص الحقائق للمسلمين

ثم انتقل مؤخرا في خطابه الى الكلام عن اختلافات المذاهب وتعدد الفرق وبين ان هذه المجادلات والمناقشات التي تحصل بين الفرق المتخالفة عقيمة لا فائدة فيها بل انها كانت سببا لتفريق كلمة المسلمين فقد ظهر بالاختبار ان هذه الاختلافات لم تولد الا الضرر العام وأوضح في عرض حديثه ضرورة الاحتراس من المجادلات والمباحثات التي تحصل من بعض الفرق باسم الدين الاسلامي لأن كل فريق من هؤلاء المخالفين يكفر ويضلل الفريق الآخر لمخالفته له في أمور ليست من الاهمية بمكان فيجب على من يكون صحيح الرأي في هذه المسائل ان يؤيد آراءه وأفكاره بالادلة والبراهين الناصعة ثم انتقل أيضا الى البحث في أحواله الخصوصية فذكر انه شافعي المذهب ومقلد وما ينسبه اليه بعض الناس من الدعوة الى الاجتهاد (كذا) هو ناشئ عن سوء التفاهم فقط وتكلم أيضا عن المذاهب الاربعة فقال ان ظهور مجتهد بمذهم متعسر ولا ينكر احد ان الاحوال تغيرت تغيرا محسوسا بعد زمانهم فيجب اذا ان تتغير بعض الاحكام

وذكر لنا انه يرد في مجلته على المقالات التي تنشر في جرائد أوروبا اعتراضا على الاسلام مستدلا بالآيات والأحاديث ولذلك حلت كتاباته واستدلالاته محل الدقة والاعتبار وقال انه يجب لاقناع الخصم الاستدلال من الكتاب والسنة وختم كلامه بأن ما ينشره في مجلة المنار يؤيد كل ما ذكر (١)

(١) العمدة في هذه المسألة ما بينا في ص ٧٥٧ و ٧٥٨